مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(8)، العدد (1)، (جوان -2023)، ص 284-295
ISSN: 2602-5566 EISSN: 2716-8999

حميد دباشي والوقائع السوسيولوجية للإسلام السياسي؛ مساءلة مفهوم نهاية الإيديولوجيا الإسلامية.

Hamid Dabashi and the sociological facts of political Islam; questioning the concept of the end Islamic Ideology.

رابحي نور الهدى[1*]
[1] مخبر الدّراسات المصطلحية والمعجمية، جامعة يحي فارس – المدية (الجزائر)،
rabehi.nourelhouda@univ-medea.dz

تاريخ الإرسال: 2022/06/22 تاريخ القبول:2023/05/06

ملخص:

يتجلّى المسعى البحثي لهذه الورقة العلمية في استكناه التصوُّر المُغاير الذي بات يسري عليه المنظّر الإيرانو-أمريكي **"حميد دباشي"**؛ ابتغاءً منه فكفكة وتجاوز أعراف الخطاب الكولونيالي، عبر استبصاره العميق لطبيعة العلاقة الجوهرية بين الحضارتين المتقابلتين (الإسلامية/الغربية) ومحور ارتساماتها الأولى في التَّحليل كضرورة مُلِحَة استدعتها إعادة القراءة المُتفحِصة للإرث الاستشراقي ونظام فكره الإمبريالي أحادي القطب، المثّقل بالتَّحيُّزات القابعة أساسًا في كنفِ الظاهرة الدّينية ذات الخصوصية السياسية، حين تصعيدها كقوة ناعمة تتناغم والنّظام السياسي العالمي، إضافة إلى مناقشته النَّماذج الواقعية، تَبِعَات وقائِعها السوسيولوجية فضلا عن انعكاساتها على موضوعة الإسلام السياسي المعاصر.

كلمات مفتاحية: الإسلام؛ الغرب؛ هجمات 11سبتمبر؛ الإسلام السياسي؛ الإيديولوجيا الإسلامية.

Abstract:

This research paper aims at reviewing the different perception of one of the most prominent post-colonial figures, the Iranian thinker "Hamid Dabashi ", who tried deconstructing the customs of colonial and post-colonial discourse through a deep foresight of the fundamental relationship between a potent binary opposing civilizations (Islamic/Western) and the centerpiece of its first sketches as a necessity to re-read the orientalist legacy and its monopded colonial system of thinking loaded with prejudices underlying in the religious phenomenon Of political vocation, when escalate as a soft power in line with the global political system, in addition to discussing the realistic models, the outcomes of their sociological spillovers along their impact on the modern political Islam.

Keywords: Islam, the West, Events of 9/11, Political Islam, Islamic Ideology.

[*] المؤلف المرسل.

1- مقدمة

بُعيْد أنْ استبيح -تسعينات القرن الماضي- تداولية مصطلح الإسلام السياسي في الدوائر الأكاديمية مُقدّمًا نفسه بهيئة المشروع المُندّد بانصهار قيَّم الظاهرة الدّينية مع الأنظمة السياسية العالمية، آن له أنْ يُجدّد مضامينه ويوسع من دائرة اشتغاله على مستوى الحقل المفاهيمي، ومشروعية تأويلاته المحدودة للخطاب السياسي المعاصر التي طالما تلبستها براثن الإيديولوجيا الأمر الذي حال بينه وبين تقديم نبوءة ممكنة إزاء جوهر العلاقات الدّولية الراهنة ومصيرها؛ . مُفْصِحًا عن أخطاء الماضي التاريخية كحصيلة تصحيحية لمساره التطوّري الطبيعي، توازيا مع تنامي الفكر الإسلامي خصوصا لما برهن على نجاعة مقولاته مقابل إخفاقات المشاريع التنويرية . عقب أحداث 11سبتمبر 2001 التي تعتبرها أمريكا وجها ثانيا للإسلام، تِبعًا لهذا فإن أبرز مُحَلّلِي الخطاب ما بعد الكولونيالي المُفكّر الإيرانو-أمريكي "حميد دباشي" قد تعرَّض لمسألة الإسلام . السياسي من مدخل سوسيولوجي يُولي عنايته القصوى لدور البناء الاجتماعي وديناميةِ نماذجه الواقعية التي تغافل عنها معاصروه ، وذلك في خضم استئصاله للثنائية المُفبرَكة مؤسساتيًا ألا وهي (الشرق/الغرب)مُتأجِجًا بترسانة معرفية تُخوّله من إعادة مَوْضِعِهَا ضمن سياق تأويلي يتعالى عن التنميطات المسبقة والتَّوصيفات المغلُوطة، كل هذا الطرح المسبق يدفعنا للتساؤل عن الكيفية التي أُعيد بها بعث خطاب الثنائية المَيّتة؟ وهل تمَّ ذلك بتظافر البُنى الإيديولوجية السياسية؟ وما مدى صحة أطروحته التي تؤوّل العالم للدخول في مرحلة جديدة من تاريخ الإسلام الاجتماعي نظرًا لاستنزاف تحليلات الظاهرة الدّينية وحركاتها الإسلامية؟ .

2- الإسلام والغرب بعد 11 سبتمبر

إنَّ المُتأمّل بعين فاحصة للمشهد السياسي الرَّاهن، سرعان ما تتكشَّفُ أمامه تلك الصراعات المُندَغِمَة بالتطرُّف الإيديولوجي قوامها المساجلات والحوار الحضاري المتبادل بين ثنائيتين جغرافيتين غير متساويتين هما " الشرق" و" الغرب"؛ العالم الإسلامي ونظيره الغربي، إثر محاولات الأطراف الثَّقافية المتنامية التي تتغيا الفهم الشامل لظاهرة الإسلام المعاصر وتصدير معرفة متكاملة حوله، هذا الأخير الذي تمكَّن بفِعْل الأحداث السياسية الطارئة وأعني بها هجمات القاعدة على العواصم الأمريكية " نيويورك"، " واشنطن" في الحادي عشر سبتمبر عام2001؛ من خلق تصوُّرات ورؤى جديدة بخصوصه، شعارها الأول إعادة توصيف الأحكام القبلية وتمحيصها وكذا التَّصوُّرات النَّمطية المترسّبة في الذّهنية الغربية و نظام عقلية الفكر الاستشراقي عموما، المتعلقة أساسًا بالظاهرة الإسلامية، فمحاولة التَّأصيل ومُراجعة الإرث التَّاريخي المُثّقل بالتَّحيزُّات الكامنة والتَّعميمات المُتأصّلة في الوعي أو اللاوعي الفكري لطبيعة

العلاقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية؛ بات ضرورة ملحّة استدعتها ظروف اقتصادية، اجتماعية وسياسية مُغايرة.

لو تمَّت عملية إحصاء عدد "الذين يستخدمون الأسماء -التَّعميمات- غاضبين أو جازمين، وهم يتمسكون بزمام المعرفة الحقَّة بكافة مناحي التقاليد والأعراف الغربية، أو التَّشريع الإسلامي، أو اللّغات الحيَّة في العالم الإسلامي؛ لكانوا نفرا قليلا" (سعيد، 2014، صفحة 28)، إلّا أنَّه وعلى الرغم من هذا القصور المنهجي على مستوى الجهاز المفاهيمي نَلِفُهُم لا يتوجَّسون مصادرة الأحكام ونفثِ التَّعميمات بشأن التَّاريخ الممتد لكل من " الإسلام" و"الغرب"، فجهل هذه الفئة أو نسبية مُدركاتِها هو ما يُحتّم علينا الاستبصار الفعلي للتَّجارب العميقة والتَّصنيفات الملازمة للثنائية المُتناظِرة " الإسلام" و" الغرب" لما يقارب أو يزيد عن أربعة عشر قرنا، أو ربما حتى الإعراض عنها بالمعنى الميتافيزيقي لها.

لقد نالت قضية " الإسلام" حظَّها الأوفر من الدّراسات والأبحاث في الدوائر والأواسط الأكاديمية خصوصا تلك المعنيَّة منها بتحليل العلاقات والشُؤون الدولية المعاصرة؛ ذلك لما تنطوي عليه من ازدواجية وتعدُّد قرائي كونها دينًا منزَّه في المقام الأوّل، وباعتبارها ظاهرة سياسية في الوقت عينه، لذا "من الضروري هنا أنْ نُمَيّز بين معنيين للتَّعبير وأنْ نبحث عن القضايا المتميّزة التي يُثيرها كل تعريف، فالإسلام بالمعنى الأوّل؛ أي باعتباره دينًا يقوم كنسق من الإيمان بما فوق الطبيعة وما يرتبط بذلك من مسائل الأخلاق، القدر والغاية أما عن المعنى الثّاني " الإسلام" باعتباره نظامًا اجتماعيًا وسياسيًا فإننا بحاجة إلى دراسة كاملة لمجتمعات ونُظُم سياسية بذاتها؛ فالإسلام كموضوع للدّراسة ينبغي أوّلا أن نُذيبه لنجعله شيئا عينيا في دراسة أحداث وأماكن بعينها" (فريد، 1997، صفحة 10)، معنى هذا أنَّ "الإسلام" في مدلوله الاصطلاحي والأوّلي البديهي مُتلبّس بالقداسة الدّينية ، يُمثّل جوهر الرسالة "المحمدية" الثَّابت وواجهتها فهو تعريفٌ يتسم بالطابع التَّجريدي الماورائي نظرًا للتصديق الكلّي بمجموع القِيَّم والمبادئ السامية التي يشتمل عليها ويدعو لاعتناقها، في حين أنَّ الدلالة الثّانية للملفوظ تشير إلى ظاهرة ذات خصوصية سياسية أقرب ما تكون مشبعة بالتَّعميمات، يمكن تصوُّرها كنتاج لسلسلة من تفاعلات الأنظمة والممارسات الاجتماعية داخل الحيوات السياسية على مدار سيرورة تاريخية معينة، يبقى بهذا التطلُّع لمحاولة ضبط المفهوم الذي ظلَّت تتداوله الأقلام ، تقديمه بصبغة موضوعية و تبيان مدى تداخل المجالين الدّيني، السياسي وتنوعهما؛ العتبة التَّحليلية لبلورة رؤيا متأنية جديدة مزعزعة لليقينيات المتجذّرة حولهما.

كُلَّما دنونا من نهاية القرن العشرين؛ أي قبل التيقن من زعم النبوءة الزائفة، تلمسنا أنَّ الدّين والمقصود به هنا "الإسلام" غدا القوة السياسية النَّاعمة المُهدِدَة لكينونة " الغرب" لقرابته له مما عداه من الأديان الأخرى وأشدّهم فاعلية في إثارة قلقهم على نطاق أوسع، حيث شكلت هجمات 11 سبتمبر مُنعرجًا حاسمًا في تاريخ أمريكا إذ وجدت نفسها وجهًا لوجه مع ذكرى هشاشة كبريائها المُسْتَحْدَث دون إغفال حركة إيقاظ بقية الدّول اللاأوروبية من سُباتها ودعوتها للتَّفكير خارج الإطار والتَّقسيمات الثنائية التقليدية، وكذا الكفّ عن إقامة حوار عقيم مع طرف استُنْفِدَتْ مضامينُه الفكرية وتبددت هيمنتُه، الأمر الذي لطالما دعا إليه "حميد دباشي" وشدَّد على ضروريته في أزيد من موضع " يجب بدء التَّفكير، من اليوم الموالي لغدا، عندما ندرك أنَّ "الغرب" قد استراح بسلام، وأنَّ مُفكري ما بعد الاستعمار ولفترة طويلة ظلُّوا يتحاورون مع مُحَاوِرٍ ميّت بالأساس، أبقوه مثل مومياء محنطة بحوار وهمي"(Hamid, 2019, p. 88) ، فإنَّه لم يعد من باب الكفاية التذمر، الاحتجاج أو حتى الاستفاضة في الحديث عنها على اعتبار " أقوى ثنائية مجازية في عصرنا " الإسلام" و"الغرب" هي الحيلة الشبيهة لهذا التفرُّع؛ هذه الثنائية المعرفية. الحديثة كانت مُنتِجَة ومُثمِرَة طيلة القرنين الماضيين، وقد فقدت أخيرًا فاعليتها المتناغمة". (Hamid, 2019, p. 95)

على الرغم من تصدُّر مسألة" الإسلام" و"الغرب" وريادتها المشهد الفكري الثَّقافي بصفتها الأطروحة الأكثر رواجًا ليس فقط في العقدين الأخيرين إنَّما حتى في زمننا الحالي إلا أننا نجد "حميد دباشي" ينزَع عنها الطابع الخرافي المتوارث عبر دعوته للتحرر والانعتاق من أغلال سحر تلك الثنائية الواهية الزائف، على النحو الذي يتيح إمكانية اختراق الأنا أو الذَّات للآخر وإبطال فاعلية هيمنته التي تختزل بدورها الوقائع وتجعلها قارة وثابتة بدلا من إدراجها ضمن صيرورة تاريخية آنية التشكُّل والتَّحوُّل تماشيًا مع الحتميات التي فرضتها تحديات النَّموذج الحضاري المعاصر وتغيّراته الراديكالية .

1-2 أمريكا والإسلام تحت المظلة الأخلاقية

إنَّ الانتهاء لاستقراء ومعاينة حكيمة لمعطيات ظاهرة الإسلام المعاصر يستوجب منا استكناه طبيعة العلاقة الجوهرية بين موضوعة " الإسلام" كمدخل نظري يستهدف تحديد قيمة فاعليته، إعادة موقعته داخل الحياة الثَّقافية والمحافل الدّولية، وبين "الغرب" الذي يسعى جاهدًا لإدراج العالم الإسلامي ضمن نظامه العالمي الشمولي مستعينًا بتظافر قوة المعرفة مع المؤسسة الإمبريالية خصوصًا بعد أحداث 11 سبتمبر حينئذ " شرع الزعماء السياسيون وصانعو القرار في الغرب ينشرون تصريحات تؤكد اقتناعهم ببراءة "الإسلام" مما حدث، وأنَّه قوة إيجابية في عالمنا؛ إذ هو دين سلام وتسامح" (بينارد، 2013، صفحة 24)؛ بوسعنا إدراج هذه النزعة

التآزرية التي مثَّلتها فئة أقلية من رجال السياسة والأكاديميين الغربيين ضمن مُسمى الإسلاموفيليا كمقابل لمصطلح رهاب الغربيين من المسلمين ومعاداتهم للإسلام (الإسلاموفوبيا) . هذه الأخيرة بدورها حوَّلت مسار العداء وخففت من وطأة الصراع المحتدم، إلا أنَّ مداها وحيّز تأثيرها يضيق كلما توغلنا في البحث الجدي حولها لعل عزاءنا وحجتنا الوحيدة في ذلك " تواجد الجاليات الإسلامية الوفيرة في عددها داخل الدّول الأوروبية والغربية الأخرى، حيث تبيَّن عن كثب للغرب أنَّ حِدَّة الإرهاب عند المسلمين هي أقل مما يتصوَّرون في الماضي عندما عززت المؤسسة الاستشراقية هذا التصوُّر رغم وجود إحصائيات ترى أن 10% من الإرهابيين في العالم هم من المسلمين" (رسول، 2001، صفحة 08).

يُراجع " حميد دباشي" قضية " الإسلام" و " الغرب"، جوهر العلاقة بينهما ومحور ارتساماتها الأولى في التَّحليل؛ وِفقًا لتصوُّر مُغاير يتكئ على براديغم مُتفرّد منافٍ كلّيًا للطُروحات السائدة، عبر شَكْلَنَة صِيَغٍ جديدة لُمجمل التَّصوُّرات الفلسفية الفكرية وكذا التَّاريخية الموغلة في القدم بشأن تلك الثنائية غير المعصومة عن التَّحدّيات التي تطرحها سلسلة الأحداث الطارئة ومتغيراتها؛ ذلك لأنَّه الآن " وأكثر من أي وقت مضى في الذاكرة الحيَّة، " الإسلام" و " الغرب" يظهران كقوتين رئيسيتين تتسارعان نحو إحداث صدام دائم، مثلما لو أنهما كانتا من زمن غابر، فالدَّارسين ومُحلِلِي الشؤون الخارجية بدءًا من "صموئيل هنتغتون"، "فرانسيس فوكوياما"، . و"بيرنارد لويس" إلى "جيل كيبل"،"أوليفيه روا" و"نايل فرغسون "، قد كتبوا باستفاضة عن المواجهات التَّاريخية والاستراتيجية بين " الإسلام" و" الغرب"(Hamid, 2019, p. 95) ، وحاججوا فيما إذا كانت العلاقات الدّولية المعاصرة ترتكز أو لا ترتكز على ما أسماه " صموئيل هنتغتون" بصدام الحضارات الذي يتخذ فيه النزاع بين الدّول، بصورة متزايدة شكل منازعات حضارية وانقسام العالم إلى كتل متنافسة. (فريد، 1997، صفحة 10).

عطَّلت هجمات 11 سبتمبر الماكينة الإمبريالية الغربية ونزعت عنها شرعيتها وشرعية . فاعليها السياسيين، الأمر الذي أعاد رسم تخوم الأنظمة و نماذج تمثيلاتها الكونية الإقليمية والعالمية على حد السواء، فاتحتها تفكيك مقولة " الإسلام" و" الغرب" التي لطالما عُدَتْ الابن الشرعي للمؤسسة الاستشراقية، إرثها الكولونيالي المتبقي الذي عاث فسادا لعقدين من الزمن تحت كوجيتو " أنا أغزو إذن أنا موجود"؛ ففي هذا الصدد يقذف بنا تصوُّر "حميد دباشي" إلى تقليب دفتيّ الكوجيتو الديكارتي ومنطقه الاستعماري على وجهه الممكن " أنا أغزو إذن أنا أفكر" كأورغانون جديد يسنخُ بتحقيق الكينونة الفعلية لها، علاوة على تخريجه لهذه الثنائية في مشهد بانورامي تتبدد فيه الصورة الزائفة لتوأمة مقولة " الإسلام" و"الغرب" وتقديمها لنا على " أنَّها أثر تلك المؤسسة؛ نحن نطارد "الإسلام" و" الغرب" من نهاية ذيل منطق " أنا أغزو إذًا أنا أفكر"

ففي نهاية الأمر هذه الثنائية لمتضادة هي وهمية، لُفِقَتْ على فرضيتين خاطئتين؛ سياسيا تستند إلى التقنين الإيديولوجي المتفشي من المعارك المطولة على الموارد المادية وخصائصها الاستراتيجية" (Hamid, 2019, p. 95).

2-2 تقويم 11 سبتمبر وصناعة الكراهية

ليس من صنيع الصدفة أنْ نشهد في الألفية الأخيرة من القرن الحادي والعشرين المتفائلة بنهاية الحروب سيما بعد أفول الماركسية؛ انتشارًا واسعًا لنزعات مُعادِية مُفعمَةٍ بمشاعر العداء والكراهية تتغذى على اختلاف الانتماءات والتَّوجهات السياسية الإيديولوجية، لما لها من ثقل في تغليب كفة هيمنة طرف على حساب طرف آخر والعالم الإسلامي ليس بمنأى عنها " فبُعَيْد انقصاف مركز التجارة العالمية، وبمضي أقل من ثلاثة أيام، دَوَتْ في أرجاء المعمورة وجهاتها الأربع سلسلة ثانية من الانفجارات: هي انفجارات النزعة الفكرية المعادية" (جان، 2003، صفحة 42) للإسلام والمسلمين.

في هذا المناخ انتشرت ظاهرة "الإسلاموفوبيا" كمصطلح مبتدع، صاحب تزايد عدد المهاجرين المسلمين في الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، وربطها البعض الآخر بقيام الثَّورة الإسلامية في إيران وممارساتها، ومن ثم بأحداث11 أيلول2001 التي تبناها تنظيم القاعدة وأدت إلى نمو مشاعر الكراهية واختزال الشر المطلق ضد المسلمين (عماد، 2020، صفحة 115)،إنَّ هذا التحامل على الإسلام والمسلمين الذي طغى حضوره على المشهد الإعلامي والأكاديمي الأمريكي لم يكن وليد هجمات 11 سبتمبر وتبعاتها فحسب؛ إنَّما هو مُتَأصِلٌ وضَارِبٌ بجذورهِ عُمْقَ تاريخ أوروبا والغرب الاستعماري العتيد، إلا أنَّه بإيعاز من تلك الحادثة وبتظافر القوى الإعلامية قد استطاع إعادة تشكيل حضوره مُتلبِّسًا بعباءة حداثوية براقة، تخطى عبرها الصراع القائم بين " الإسلام" و"الغرب" إلى ما هو أشمل وأعنف، لعله الأمر الذي تفطَّن إليه "حميد دباشي" وصرَّح بأنَّ " الحرب ليست مطولة، إذا كانت فيما مضى، بين " الشرق" و" الغرب" أو بين " الإسلام" و" الغرب"، الحرب ليست بين الولايات المتحدة الإمبريالية و" طالبان" أو " القاعدة" على حد السواء؛ الحرب بين التجلي الموحش المسمى " العولمة" والانعكاس المرآوي للرعب الذي يُخيّم على العالم الآن، شفرته الإرهاب" (Hamid, 2008, p. 140)، وهو تصوُّر أقرب ما يكون في جوهره استحضار للنبوءة الهنتغتونية التي تُبشر بلانهائية الحروب واصطدام المركبات الفضائية بالتَّكوينات العقائدية.

بعد الحادثة التي ألمت بمجمل الحوادث التي لم تحدث، تواطأت وسائل الإعلام الأمريكي . وسخَّرَت إمكاناتها لتأصيل الفتنة بين العالمين الإسلامي، الغربي وتعميقها عن طريق إقامة حوار عالمي يلم بالأطراف المشكلة لجغرافيته، تصدرهم الفاعلين الأكاديميين حيث" تم استدعاؤهم .

للرد على ثقافة الخوف المتزايدة وطرد شبح " الإسلام" الذي تَكَشَّفَ أساسًا في السنوات الأخيرة في كل من أوروبا والولايات المتحدة، فنحن لم نعد بحاجة مراجعة التَّحوُّلات الذَّاتية والوعي الاجتماعي في "الغرب " حيث تموقعت الإسلاموفوبيا أساسًا بعد 11 سبتمبر، إذن لدينا هنا آثار لثنائية مُتعالقة وفي الوقت ذاته لكل منها تاريخها المُنفرد" (Walter, 2006, pp. 13-14)وعليه يمكن القول بأنَّ الإرهاب والرهاب من المسلمين ما كان ليُبْصِر النُّور لولا وساطة الإعلام وجهوده الحثيثة لصناعته والترويج لتعميمات بلاغية نمطية إزاءه.

3- نحو سوسيولوجية الإسلام السياسي المعاصر

في الواقع ليس جديدًا اهتمام السوسيولوجيا بالظاهرة الدّينية، فقد ارتبط ذلك باهتمام مُنَظّريها وروادها الأوائل الذين وضعوا المجتمع والعلاقات النَّاظمة لسلوك الجماعات كوحدة تحليل مرجعية قبل الفقه، اللاهوت والمنتجات الذّهنية (عماد، 2020، صفحة 117)، فمنذ أن اعتلى مصطلح الإسلام المعاصر ركح المسرح السياسي قدم نفسه خيارًا بديلا للمجتمعات الإسلامية عن إدراكها للظاهرة الإسلامية كمنظومة كلّية مُفارقة للزمن تُسْفِر عن إيديولوجيا سياسية، عازمًا فَكَّ رقبتها من أسر التَّنميطات اللاتاريخية المُسبقة حولها، طبعًا دون إغفال دينامية النَّماذج الواقعية للسياق الاجتماعي.

وفقا لهذا المنطلق " ترى السوسيولوجيا بأنَّ الدّين ظاهرة منبثقة من واقع اجتماعي، اقتصادي، سياسي وتاريخي شديد التَّعقيد، يتطوَّر بتطوُّر هذا الواقع وهو يتصل بدور المؤسسات والبُنى الاجتماعية اتصالا عضويا وتفاعليا" (عماد، 2020، صفحة 117)، على عكس التَّرسيمة الاستشراقية القديمة التي تتصدى للظاهرة الدّينية ووقائعها بمعزل عن شروط إنتاجيتها التَّاريخية ومن ثم الاجتماعية؛ ما يَحُولُ بالضرورة بينها وبين تقديم فهمٍ حصيف بخصوصها مُنَزَّهٌ عن التَّحيُّزات المُثّقلة لكاهل السلوكيات الدّينية وتحدياتها اليومية.

3-1 حقيقة فشل الحركات الإسلاموية ونموذج قيام الدولة

يُرجِعُ " أوليفيه روا "أزمة الإسلام السياسي المعاصر" لمكونين رئيسيين: الفشل في تحقيق النمو، والانفصال عن التيار العالمي المهيمن، لقد اصطبغ العالم الإسلامي منذ فترة طويلة بالتخلُّف والعجز النسبي وجرَّب حلولا مختلفة؛ لكن من دون نجاح يُذكر، مما ولد حالة من الإحباط والغضب" (بينارد، 2013، صفحة 14)؛ ، مع ذلك فإنَّ أطروحته هاته قد لاقت حملة هجوم شرسة شنَّها المتفائلون بنجاعة الحركات الإسلامية – نسبيا-وثوراتها ذات المنزع العالمثالثي، إثر صعود الإسلام السياسي وإعادة بسط رؤاه، لعل أبرزها توأمة الدّين والسياسة اجتماعيًا كمطابقة تتناغم والنّظام العالمي للدّولة المعاصرة في شموليته؛ هذا طبعا تواليا مع أحداث وتبعات الواقعة السبتمبرية الرمزية، هذه الأخيرة التي فضحت إفراط الأكاديميين والساسة

الغربيين المتوسمين بفشل أطروحة الإسلام السياسي، إذ عملية تقدير متانة أية أطروحة مرهون بمدى قدرة البدائل على خلخلة وتعطيل دينامية مضامينها. .

يُمكننا الحديث في هذا الصدد عن تصدُّع العالم الإسلامي، جراء انشطاره إلى تيارين إسلاميين كبيرين تندرج ضمنهم الممارسات المتباينة للحاق بركب النّظام العالمي المعاصر وإنباء دولة إسلامية قِوَامُها العدالة الاجتماعية فضلا عن حظوتها بكامل السيادة والشرعية في المحافل الدّولية، أولهما التيار الأصولي المتشدد: الذي يتسم مُعتنقوه برفضهم القاطع لمجمل القِيَّم الحداثية، معاداة الغرب "الولايات المتحدة "بالتحديد، شعاراتها الديموقراطية ومعارضتها ، متشبثين بأخلاقيات التَّشريع الإسلامي وينبوعه الأوّل " القرآن الكريم" على سبيل نزعة أصلانية . حتى وإنْ بلغت مُنتهى التطرُّف، أما التيار الثَّاني العلماني فهو مناصر للحركات والسياسات الغربية؛ لاعتقادهم تعارض الإسلام مع مُقتضيات الفكر السياسي المعاصر، مُهلِلين بفكرة الفصل التام بين الدّين والدّولة في الممارسات السياسية حفاظًا على قدسيته شريطة مواءمة تلك الممارسات للمعايير الديموقراطية الحديثة، بمعنى أنهم قد راهنوا على قدرة الإسلام في تبني القِيَّم الإنسانية واحتوائها داخل التنظيمات الاجتماعية المتعددة إبان القرن الحادي والعشرين.

اغتنمت المؤسسة الأمريكية فرصة انقسام العالم الإسلامي إلى تيارات متناطحة فيما بينها للإطاحة بنموذج طوباوية الدّولة الإسلامية المُجْمع على تاريخية ظاهرتها والتي كانت كلّ المؤشرات تُبشّر بقيامها فتأرجحت بين حدي الوحدة والتجزئة، الأمر الذي قد يستبطن ويسفر لنا عن تعددية الجماعات عِوَضًا من تعددية سياسية، إذ يبقى الشرط الأساسي لقيام دولة تتمأسس على قوانين تستمد شرعيتها من قدسية النُّصوص الإسلامية مع القدرة على فرض وتفعيل كينونتها حبيسا -بالضرورة - لبعدها الوحدوي؛ حيث مؤشرات هذا الرهان الأقرب إلى الواقعية . "وظروف صعود الدّولة الإسلامية سرعان ما تلاشت وأُضْفِيَ عليها الطابع العدواني الأساسي للجماعات الإسلامية المتشددة الأخرى، التي اقترنت بتشكيلات مماثلة في أفغانستان واليمن "القاعدة"، أو إفريقيا " بوكو حرم" ، والتي حفزت خطاب التشدُّد الإسلامي والإسلام على الارتقاء به إلى مصاف العداء الصريح للغرب"(Hamid, 2019, p. 94) ، مستعينين بخصومة التيار الإسلامي الأقرب إلى المؤسسة نقصد به مندمجو المسلمين مع الغرب ليتحالف في خضمه صُناع القرار الأمريكان مع المنددين به ضد الأطراف الفاعلة الأخرى غير المحتضنة للإسلام السياسي ومنحهم امتيازات تكفل لهم حق نشر أفكارهم وتعميمها على أوسع نطاق.

4- القول بنهاية الإيديولوجيا الإسلامية

منذ أن اقترح "حميد دباشي" مصطلح " نهاية الأيديولوجيا الإسلامية "، بقي يتحَسُس طرائق إنضاج مضامينه وآليات اشتغاله كمصطلح، مفهوم، أو كمرحلة سيما بعيد تنامي

الاهتمام بالفكر السياسي الإسلامي جراء أحداث 11 سبتمبر، فالزعم بلانهائية أي مصطلح كان يفترض في بادئ الأمر يقينًا بأسبقية ماهيته، وتحديدًا مفاهيميًا منا له مع محاولة حصر مدلولاته وكذا ظروف تشكُّله.

يظهر لعيان المشهد الفكري السياسي المعاصر، تداولية مصطلح "الإيديولوجيا الإسلامية". وسرعة انخراطه في السجالات المحتدمة حول ادعاء إمكانية الحديث عن توأمة للدّين مع الممارسة السياسية لا تطالها الأدلجة، وبين استحالة ذلك، وعليه فإنَّه باستطاعتنا المبادرة إلى توصيف "الإيديولوجيا الإسلامية "بأنَّها التَّدبير الفكري الزائف أو المغلوط حين تظافر جهود الجماعات الإسلامية لصياغة تعريف نهائي للظاهرة الإسلامية، تقاليدها الاجتماعية واقحامها في الشأن السياسي رِفعةً لمكانتها وتكريسًا لعقائدها.

لعل "حميد دباشي" كونه من ألمع الأكاديميين الذين خاضوا في هذه المسألة نجده قد تعرَّض لها كاشفًا أعطاب التَّاريخ ومُعيدًا الاعتبار لهامشية الظروف الاجتماعية ووظائفها المستبعدة خلال عملية تقديم تأويلات تخُصُّ الممارسات السياسية التي تجعل منها تفسيرات نمطية مُعممة، حيث كان ذلك " قبل عام فقط من ظهور الحركة الخضراء، وعندما بدا الإنذار الكاذب لأطروحة "صموئيل هنتغتون" "صدام الحضارات" في أعقاب أحداث 11 سبتمبر.

طوَّر "حميد دباشي" من خلال مؤلفه لاهوت التحرير الإسلامي: مقاومة الإمبراطورية(2008): المعالم النَّظرية لأطروحته المُتمثّلة في " الإيديولوجيا الإسلامية" التي اتخذت مجرى المعارضة الشاملة لأطروحة صموئيل هنتغتون " صدام الحضارات" في المقام الأوّل، نظرا لازدياد الوعي والفهم الصحيح لأوجه الإمبراطورية المتحوّلة في القرن الحادي والعشرين، إضافة إلى تحيين استراتيجيات مقاومة هذه الأخيرة دونما تولّد أو إحداث بالضرورة رؤيا صدامية مع الغرب الإمبريالي.

يربط "حميد دباشي" الإيديولوجيا الإسلامية بحركات الثَّورة الإيرانية 1979 التي شكَّل مجتمعها الإسلامي ودستوره المُفعَّل استثناءً ومِثالا يُحتذى به لمثيلاتها من ثورات الربيع العربي، فهو لا يسهب في تعريفها ولا بسيرورة المصطلح التَّاريخية إلا بما ينير تلافيف اشتغالها والكيفيات التي شيَّدت بها أطر مرجعياتها المعاصرة التي سنحت للعالم الإسلامي بالصعود كمنافس للغرب ، يقول بشأنها-الإيديولوجيا الإسلامية- " كانت الإيديولوجيا الإسلامية الشرط الأساسي لقيام الثَّورة الإسلامية في إيران، إلا أنَّ هذا لا يعني بالضرورة إمكانية ترجيحه للإيديولوجيا الإسلامية كمسبب للثَّورة الإسلامية؛ لكنه يُسَلّم بأنَّ هذه الأخيرة لم تكن لتحدث لولا الإيديولوجيا الإسلامية" (Hamid, 1993, p. 07).

لقد وُلِدَت "الإيديولوجيا الإسلامية" خلال التَّاريخ الحديث، باعتبارها تَنَاسُلا حتميًا لزواج الإكراه بين كل من " الإسلام" و" الغرب"، وفي المقابل فإنَّ الثنائية السابقة هي بالأحرى من نسج الخيال، مقنعة في ظهورها(Hamid, 1993, pp. 499-500) ، وحتى نَبلُغَ منزلة الفهم الصحيح . للثنائية التقليدية "الإسلام" و" الغرب" ومخرجات تفاعلهما؛ يفترض على العالم الإسلامي حين تصعيده كقوة مُجابهة للغرب أنْ يُجَدّدَ محتوياته ووعيه بها في ظل التَّغيرات العالمية استجابة منه لمتطلبات العصر وأشكال هيمنة المؤسسة الإمبريالية الغربية التي لا تتقاعس عن استصاغة . تخييلات مجازية تتعلق بالشرق عامة وبالعالم الإسلامي خاصة، ليحسب له حساب أنذاك.

كان لزامًا على "الإيديولوجيا الإسلامية" أن تتبنى شروط العلمانية وممثليها حتى تنجو من حتمية الفشل، الذي مرده "عجز الإيديولوجيات العلمانية جزئيا على تحقيق قدر من الشرعية في المجتمعات الإسلامية لمحاولتها تفعيل خطاب إسلامي صامت"(Hamid, 1993, p. 14) ، فعملية استنطاق خطابات الحركات الإسلامية المقموعة يفضي بنا إلى تخريج أفكار مشحونة بالتَّكوينات العقائدية تتزاحم داخل الحياة السياسية؛ الشأن الذي يتطلب إعادة النَّظر فيها وتعرية تحيُّزاتها بالاحتكام إلى اليقظة.

تَنُمُّ الحاجة المعرفية واتساع الأفق المفاهيمي للعلوم الإنسانية، عن إعادة النَّظر في مقولة التسليم بالإيديولوجيا الإسلامية لتمثُّلِها الصورة الوحيدة والممكنة جراء المزاوجة بين الحقلين الدّيني والسياسي وتصفية ترسباتها الذّهنية التي تعيق تجلي استخداماتها الميدانية في هيئته الطبيعية؛ تلبية لدحض بدهية إيديولوجية الدّين، كشف تزييف الوعي بها وتجاوز الفروقات الكامنة بينهما، إثر هذا يقترح "حميد دباشي" مصطلح "نهاية الإيديولوجيا الإسلامية" حتى يكون إلغاء سابقتها أو تعطيل مدلولاتها ممكننا بفضل المتغيّرات الراديكالية للشرائح الاجتماعية مع يقينه التام " بالاختلاف الجذري لبديهية مقترحه، تحديدًا في الوقت الذي يشهد فيه العالم كلّه صعودًا للتيار الأصولي، حيث تظهر "نهاية الإيديولوجيا الإسلامية" كواحدة من أقوى المقولات وأكثر الخطابات المُضادة للاستعمار والمناهضة للإيديولوجيات الإمبريالية؛ فعالية خلال المائتي سنة الماضية".(Hamid, 2019, p. 95) كان هذا طبعًا تزامُنًا مع اختراقات الأنا(الشرقية) للآخر(الغربي) التي دشنتها هجمات 11 سبتمبر وتداعياتها.

تتميَّزُ مقولة "نهاية الإيديولوجيا الإسلامية" بالرغم من مدلولها الأوّلي الساذج الذي يوحي . بفشل مضامينها أو على الأقل انتهاء صلاحية تفسيراتها الفكرية والاجتماعية بالتفاؤل؛ ذلك أنّه من الأرجح عدم تقدير الأفكار وكَيْلِهَا بمِكْيَال النجاعة أو الفشل توخيًا ديمومة حركيتها وتطوُّر

أصول تكوينها ، إذ في الوقت عينه " الذي يتصاعد فيه النّضال للدفاع عن ممارسات الحضارة . الغربية أعقاب 11 سبتمبر؛ يُبشّر "حميد دباشي" بالانهيار النهائي للتلفيق الإيديولوجي المشفر وبالتالي هو بصدد إثارة قضية نهاية الثنائية الاستعمارية المُتضادة، المُثبتة بشكل خطير بين " الإسلام" و"الغرب"(Hamid, 2019, pp. 95-96) ،نتوصل وفقا لتَبَصُر دباشي إلى تحقيق مشروعه المتمثّل في تفكيك المقولة الأكبر للنَّظرية الاستعمارية "الشرق"، "الغرب" وتنميطاتها عن طريق تفعيل مفهوم نهاية الإيديولوجيا الإسلامية وإخراجها من بوتقة التَّوصيف المفاهيمي إلى دائرة الممارسة والتطبيق.

5- خاتمة:

في المحطة الختامية يمكننا التَّوصل إلى تشكيلة من النتائج نجملها فيما يلي:

- لم تقتصر مقاربة "حميد دباشي" المُناهِضة للإمبريالية أي ما بعد الكولونيالية للظاهرة الإسلامية السياسية المختزلة بين الثنائيتين المتضادتين (الشرق، الإسلام/ الغرب) على تقديم معرفة حصيفة حولها؛ بل تعدَّتها لإعادة موقعتها ضمن الخارطة السوسيولوجية للأنظمة العالمية بإزالة الأوهام عنها، وفهم تناقضاتها التَّاريخية المُحَدِدَة لجوهر العلاقة بين الثنائية الواهية على النحو الذي يتيح إمكانية تعطيل هيمنتها وفي الوقت نفسه الإطاحة بمشروعها الكولونيالي الأكبر.
- كشفت هجمات 11 سبتمبر2001 وهي الحادثة التي تحوي مجمل الحوادث التي لم تحدث؛ عن حراك ثقافي إسلاموي أعاد شَكْلَنَة التُّخُوم الجغرافية للعالم وأنماطه المعرفية على حد السواء.
- يُرجِعُ "حميد دباشي" مأزق الحركات الإسلاموية وإخفاق نموذج انبناء دولة متمأسسة على قوانين تستمد شرعيتها من النَّص الإسلامي الأوّل؛ إلى تمزقها الداخلي الذي نجم عنه تعددية الجماعات عِوضًا عن تعددية سياسية سرعان ما أُصْطُبِغَ بالعدوانية، ليغدو بهذا البُعْد الوحدوي شرطًا أساسيًا لصعود دولة إسلامية تحظى بالفاعلية.
- اقترح "حميد دباشي" مفهوم "نهاية الإيديولوجيا الإسلامية" بديلا عن الصورة الوحيدة الممكنة لتوليفة الدّين مع السياسة، كمصطلح يُمَكِنُهُ من تعطيل الماكينة الإمبريالية التي تتغذى على قوى بُنى الإيديولوجيات السياسية.

قائمة المراجع

أولا المراجع باللغة العربية

1. بينارد ,ش .(2013) .*الإسلام الديموقراطي المدني*.مصر :تنوير للنشر والإعلام.

2. جان ,ب .(2003) .*ذهنية الإرهاب "لماذا يقاتلون بموتهم."* لبنان المغرب :المركز الثقافي العربي.

3. رسول ,ر .م .(2001) .*الغرب والإسلام "قراءات في ما بعد الاستشراق."*لبنان :المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

4. سعيد ,إ .(2014) .*الإسلام والغرب.*سوريا :كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية.

5. عماد ,ع .ا .(2020) .*في جينالوجيا الآخر "المسلم وتمثلاته في الاستشراق، الانثروبولوجيا والسوسيولوجيا."* لبنان :مركز دراسات الوحدة العربية.

6. فريد ,هـ .(1997) .*الإسلام وخرافة المواجهة "الدين والسياسة في الشرق الأوسط."* مصر :مكتبة مدبولي.

ثانيا المراجع باللغة الأجنبية

1. Hamid, D. (2019). *Europe and its shadow: coloniality after empire.* London: Pluto Press.
2. Hamid, D. (2008). *Islamic liberation thoeology resisting the empire.* london, New York: Routledge Taylor, Francis e-library.
3. Hamid, D. (2012). *The arab spring: The end of post-colonialism.* London, New York: Zed books.
4. Hamid, D. (1993). *theology of discontent: The ideological foundation of the islamic revolution in Iran.* New York: University Press.
5. Walter, D. M. (2006). Islamophobia/ Hispanophobia: the(Re) configuration of the racial imperial/ colonial matrix. *the sociology of self-knowledge*.